صفحة تصدر بالتعاون مع الجمعية النفسية العراقية

# الرعاية النفسيـــة ليتامى الحـــروب والقمع السيـــاسي

علي كاظم الشمري/جامعة واسط

أصبح من الواضح للجميع أن المجتمع العراقي يئن تحت وطأة تركة ثقيلة من المشكلات النفسية والاجتماعية، أودعه فيها النظام السابق جراء ممارسته اللاإنسانية. فأصبحت مظاهر المعاناة تسود كل شرائح المجتمع وعلى شتى الصعد ذات العلاقة. وتقف ظاهرة ((اليتم)) على رأس قائمة أصناف المعاناة هذه، إذ تؤكد الدراسات النفسية الاجتماعية ذات الصلة أن الطفل لا يمكنه أن يحيا حياة سوية دون أبوين يرعيانه تربوياً ونفسياً واجتماعياً، فضلاً عن حالة العوز والحرمان الاقتصادي التي ستترتب على فقدانه لأحد والديه أو كليهما. كما أن الاضطراب النفسي الذي يمكن أن تعانيه شخصية الانسان في كبره هو (في نظر العديد من علماء النفس) انعكاس لما واجهه ذلك الإنسان من إهمال وقسوة في السنوات الأولى من حياته.

ولو استعرضنا ظاهرة اليتم في مجتمعنا العراقي بوصفها نتيجة مأساوية أفرزتها الظروف التي مرت عليه زهاء ثلاثة عقود من حروب وحملات قمع واسعة، لوجدنا تقديرات تفوق التصور. ومع إنه ليست هناك إحصاءات دقيقة لذلك بسبب عدم توافر دراسة مسحية شاملة لتلك الظاهرة في المجتمع العراقي، إلا أن التقديرات الأولية الصادرة عن أكثر من منظمة تعنى بحقوق الإنسان عملت خارج العراق خلال مدة الحروب العبثية التي خاضها النظام السابق، أو تلك التي عملت داخل العراق خلال الأشهر التي تلت سقوطه في فرز ملفات المعدومين وفي التنقيب عن المقابر الجماعية، تشير إلى مقتل مئات الألوف من العراقيين، غالبيتهم من الذكور الشباب ومتوسطي العمر. ولو افترضنا أن نسبة مهمة من هؤلاء الشهداء كانوا آباءً لطفل واحد الأقل، فذلك يؤشر إلى وجود نسبة خطرة من الأطفال اليتامى بسبب الحروب والقمع السياسي في العراق.

وللإحاطة بهذه الظاهرة، نقترح عرضها في نمطين رئيسين من اليتم. النمط الأول هو يتم الأطفال الناتج عن الحروب الثلاث (الحرب ضد إيران ١٩٨٠- ١٩٨٨م، وحرب الكويت ١٩٩١م، والحرب الاخيرة ٢٠٠٣م). وهنا يمكن تحديد جملة من الخصائص النفسية المعتلة التي يتوقع وجودها لدى هؤلاء الأطفال، أهمها: الشخصية الاتكالية، وضعف الأنا، والخوف من المستقبل، وفقدان القدوة، وضعف النمو الخلقي، ومظاهر الحرمان العاطفي (كالبرود العاطفي وصعوبة التفاعل مع الآخرين)، وظواهر الانحراف في السلوك (كالإدمان والشذوذ الجنسي). أما النوع الآخر من اليتم فهو الناتج عن إعدم الأب لكونه (من وجهة نظر النظام) مناوئاً سياسياً سائراً في غير الخط الرسمي للدولة، مما يضيف إلى الخصائص السابقة الذكر خصائص معتلة إضافية ناتجة عن أساليب الضغط والاضطهاد التي كانت تمارسها أجهزة الدولة ضد الطفل اليتيم كونه ابن مناوئ سياسي (خائن)، وهذا يجعل حجم ونوع التبعات النفسية لهذا النمط أكثر حدة وأوسع تأثيراً. ويمكن إجمال هذه الخصائص الإضافية بـ: التمركز المفرط حول الذات، وانخفاض تقدير الذات، والميل للعنف، والاكتئاب والانسحاب من الآخرين، ومظاهر الشخصية المعادية للمجتمع. وقد حرصت أجهزة النظام السابق على إرهاب هؤلاء اليتامى واشعارهم بالنبذ والشذوذ عن أقرانهم من خلال تعريضهم إلى المسألة والتحقيق من مسؤولي الحزب ومنتسبي الأمن في منطقة السكن بشكل دوري، وتوجيه إدارت المدارس والهيئات التعليمية والتربوية للحط من شأن هؤلاء الأطفال باجلاسهم في المقاعد الخلفية في الصف الدراسي، وعدم النظر اليهم بعين العطف والرعاية كباقي الأطفال، وتجنب منحهم مراكز التفوق والقيادة على زملائهم حتى في حالة استحقاقهم لها، وحرمانهم من الهدايا والمكافآت. ويضاف إلى ذلك النظرة التي كانت سائدة على المستوى الاجتماعي تجاه أولئك الأطفال، والمتمثلة بالتعامل معهم بوصفهم منبوذين اجتماعياً.

إن الدلالات النفسية الآنية والمستقبلية لمعطيات هذه الظاهرة الأليمة تحتم على مؤسساتنا السياسية والاجتماعية ذات الصلة، كوزارات حقوق الانسان، والداخلية، والعمل والشؤون الاجتماعية، والتربية، والصحة، والهيئات الأعلامية الوطنية، أن تسعى جميعاً إلى وضع البرامج النفسية والتربوية الهادفة إلى إعادة تأهيل يتامى القتل الجماعي الذي مارسه النظام السابق. كما وللجمعيات النفسية وأقسام علم النفس في الجامعات العراقية أن تسهم بدورها الفاعل في هذا الإطار من خلال تقديمها المشورة التربوية والاستنتاجات العلمية والتوصيات العملية إلى مؤسسات الدولة المشار اليها ذات الصلة بعملية الحد من الآثار السلبية لظاهرة اليتم. وهذه دعوة للباحثين النفسانيين في بلادنا للمباشرة بحملة بحوث ودراسات تتناول علاقة ظاهرة اليتم هذه بالحرمان الاجتماعي، والفشل الدراسي، والسلوك العدواني، وضغوط ما بعد الصدمات، والقلق بأنواعه، لدى هؤلاء الأطفال الذين اضاعوا نكهة الطفولة ثمناً لجرائم زعماء ابتلوا بأوهام العظمة، فقرضوا نسيجنا الاجتماعي وسلموا أجيالنا إلى المجهول.

# سايكولوجيا الكتابة على الجدران في مدينة بغداد

لؤي خزعل العمشاني

الكتابة على الجدران ظاهرة انتشرت بشكل طوفاني في مدينة بغداد بعد التاسع من نيسان ٢٠٠٣، إذ نادراً ما تجد جداراً عمومياً خالياً من الكتابة عليه، بل إن الجدار الواحد تتقاسمه عدة كتابات وكأنه ساحة معركة كتابية.

وبروز الظاهرة بهذا الشكل يثير أمام المتخصصين في علمي النفس الاجتماعي والسياسي عدة تساؤلات من بينها: هل إن الكتابة على الجدران ظاهرة عابرة أم أن لها ابعاداً نفسية عميقة؟ وهل هي ظاهرة قديمة رافقت الانسان منذ بداياته برزت مع التطور التكنولوجي؟ وهل هي مقتصرة على مدينة بغداد وفي هذه المرحلة بالذات أم أن لها امتداداتها المكانية؟ ووفق اي الية نفسية تعمل هذه الظاهرة؟

المسح التاريخي يؤشر اجمالاً إلى أن الكتابة على الجدران ظاهرة إنسانية معقدة عميقة بامتداداتها والزمانية والمكانية، قام بتوظيفها الفرد العادي للتعبير عن امنياته الخاصة بدءاً، ثم اضفى التراث الانسان بتراكماته النوعية عليها الخصائص الفردية والجماعية للمجتمعات البشرية، لتكتسب عبر ذلك شكلاً جماعياً للتجربة الانسانية العامة في تفاعلاتها مع الواقع وفي توقها لافراغ مكنوناتها الذاتية على الجدران.

وقد ارجعت معظم المباحث الآثارية واللغوية تاريخ هذه الظاهرة إلى آلاف السنين، فضلاً عن كونها منتشرة في معظم دول العالم، إن لم نقل كلها. ولعل ابرز الدول التي تتضح بها هذه الظاهرة بشكل مكثف ومتطور وصل إلى حد قيامها كياناً مستقلاً له مدارسه ورواده ومريدوه، هي: الولايات المتحدة الامريكية وفرنسا وبريطانيا وروسيا.

وقد اجتذبت ظاهرة الكتابة على الجدران انتباه المتخصصين في علوم متنوعة منها: علم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة وعلم الانسان وعلم الآثار. إذ رأى فيها علماء الاجتماع - مثلاً - على اختلاف اتجاهاتهم: إنها تعبر عما يدور في فكر الشعب من تداعيات وافراغ للمحتوى العقلي الذي ينم عن قلق اجتماعي صرف.

اما علماء النفس فرأوا إمكانية دراسة الاحوال النفسية للمجتمع من خلالها لانها تتيح فرصة الربط بين ما يكتبه العامة والخبرة الانسانية في محورها النفسي.

وقد ركزت المدرسة النفسية على الدوافع التي تؤدي بالافراد إلى الكتابة على الجدران. كما اجريت تجارب لتحليل العلاقة بين الجدران العذراء (الخالية من الكتابة) ونوع الكتابة المكتوبة عليها فيما بعد ودراسة عوامل الاثارة والانتباه الكامنة فيها والتي تقنع الانسان العادي باتخاذ موقف اتجاهها. كما استخدمت الكتابة على الجدران في تجارب لمعالجة المضطربين نفسياً في المستشفيات النفسية.

وبسبب الواقع الممتلئ بالاشكاليات الذي يعيشه المجتمع العراقي برزت الحاجة في هذه المرحلة إلى دراسة ظواهر تمتلك مثل هذا العمق لنلقي من خلالها ضوءاً على البنية النفسية لهذا الواقع. وقد حاول بعض الكتاب تكوين تصورات اجمالية عما تحاول أن تقوله أو تكشف عنه هذه الكتابات،ولكن بعيداً عن الالتزام بمنهجية علمية مقننة. ولتلافي هذه الثغرات المعرفية واغناءاً لهذا الميدان الاجتماعي البكر من البحوث، سعت الجمعية النفسية العراقية إلى اجراء دراسة تستهدف التعرف على القيم المتضمنة في الكتابات على جدران مدينة بغداد وتحديد مدى كون هذه النصوص عفوية أم موجهة باستخدام طريقة (تحليل المحتوى).

وقد تم جمع كمية من النصوص الكتابية بلغت (١٥٦) نصاً من (١٢) منطقة من مناطق مدينة بغداد بجانبيها الكرخ والرصافة روعي في اختيارها - المناطق - التنوع من حيث التوزيع الجغرافي والمستوى الاقتصادي والثقافي والانتماء المذهبي.

وللقيام بتحليل محتوى هذه الكتابات تم تصميم اربعة تصانيف: الاول والثاني شكليان يتعلقان بعائدية النص، والثالث لتصنيف الكتابات بحسب طبيعة مضمونها: (سياسي، اجتماعي، ديني، وطني)، والرابع للكشف عن المضامين الانفعالية أو العقلانية لهذه النصوص.

وقد اظهرت التحليلات الاحصائية نتائج تفصيلية عديدة من بينها:

إن القيم السياسية كانت هي المتصدرة بنسبة (٧٤٪) ثم الدينية بنسبة (١٥٪) ثم الوطنية بنسبة (٦٪) ثم الاجتماعية بنسبة (٥٪) وقد تضمنت النصوص السياسية التعبير عن رفض النظام السابق بنسبة (٤٣,٥٪) منها، ثم رفض الوجود الامريكي والتأكيد على الديمقراطية بنسبة (٦٪) والتعبير عن ضرورة اللجوء إلى الانتخابات كآلية سياسية بنسبة (٥٪) ورفض الاحزاب السياسية الموجودة على الساحة العراقية بنسبة (٣٪)، أما النصوص السياسية المتبقية فتوزعت بين التعبير عن تاييد شخصيات سياسية (كالسفير بريمر والسيد عبد العزيز الحكيم وأحمد الجلبي) وجهات سياسية (كمجلس الحكم والحزب الشيوعي) وقضايا سياسية (كالفدرالية والدستور الدائم وفصل الدين عن الدولة) والتعبير عن رفض الارهاب وقانون الدولة الانتقالي المؤقت.

وتضمنت النصوص الدينية التعبير عن تأييد الاسلام كمنهج حياة والدعوة للجهاد ضد الاحتلال بنسبة (١٧٪) منها، ثم التأكيد على أن المال العام حرام لا تجوز سرقته بنسبة (١٣٪)، أما النصوص المتبقية فتناولت التعبير عن تأييد شخصيات دينية (كالسيد مقتدى الصدر) ومؤسسات دينية (كالحوزة العلمية) وتأكيد قضية الوحد بين السنة والشيعة.

وتضمنت النصوص الوطنية التأكيد على وحدة اطياف الشعب العراقي المتعددة بنسبة (٤٠٪)، يتلوها بنسبة (٢٠٪) لكل من التأكيد على حرية الوطن، وحبه، والتألم للواقع الذي هو عليه.

أما النصوص الاجتماعية فان نسبة (٧٥٪) منها طرح اهمية التماسك الاجتماعي وعوامله المتمثلة بالالفة والتعاون وتعميق الثقافة واعطاء المرأة دوراً اساسياً في المجتمع، بينما دعت نسبة (٢٥٪) منها إلى نبذ التفكك الاجتماعي وعوامله المتمثلة بالصراع بمختلف ألوانه وقضايا الثأر والغضب.

أما عن المضامين العقلانية والانفعالية في هذه الكتابات فقد اتضح أن النصوص ذات الاسلوب العقلاني تناولت الدعوة إلى الانتماء للاحزاب بنسبة (٢٨٪) والتأكيد على حرية وسيادة ووحدة العراق (٢٨٪) والتأكيد على التماسك الاجتماعي بنسبة (١١٪)، وباقي النصوص تناولت التأكيد على حقوق الانسان وضرورة الارتفاع بثقافة المجتمع وايراد احكام شرعية وتوجيهات اجتماعية تخلو من المواصفات الانفعالية.

بينما تضمنت الكتابات الانفعالية التعبير عن رفض النظام السابق من خلال الرفض المطلق له، واستخدام الاستهزاء والتوعد والدعاء بالموت والسب لرموزه بما نسبته (٣٦٪) من تلك النصوص ذات الطابع الانفعالي. يتلوها التعبير عن رفض الوجود الامريكي من خلال التوعد والدعاء بالموت بنسبة (١٢٪) وتناولت باقي النصوص تأييد الاسلام والانتخابات والمقاومة والحوزة والحزب الشيوعي والديمقراطية والوحدة والحرية من جهة، ورفض الاحزاب الموجودة والفدرالية وقانون الدولة المؤقت من جهة أخرى.

كما تبين إن نمط القيم السياسية المعبر عنها باسلوب انفعالي عفوي وغير موجه من جهة سياسية محددة قد بلغ نسبة (٥٢٪)، اي اكثر بقليل من نصف الكتابات.

وقد اشرت هذه النتائج حقيقة نفسية واضحة مفادها إن العراقيين كانوا يعيشون حالة احجام عن كشف ذواتهم والتعبير عن آرائهم نتيجة الضغط المسلط عليهم من النظام السابق، وحينما انهارت مؤسساته تراجع الكبت إلى الخلف واندفعوا ليعبروا عن آرائهم فكانت القضايا السياسية - بوصفها اكبر المحرمات في الحقبة السابقة - على رأس ما ارادوا التعبير عن افكارهم بشأنه، لكن لا تزال فاعلة في نفوسهم رواسب سنوات الضغط إضافة إلى التوجس من المجتمع، فتحركوا باتجاه ما يسمى بـ (المجهولية) Anonymity، فاغفلوا ذكر الاسم لكي يتجنبوا التقييم الاجتماعي السلبي وهذا ما يعرف بـ (الكشف المموه عن الذات) وهي مرحلة وسطية بين كشف الذات وكبت الكشف.

كما مارسوا تنفيساً Catharsis ذا صبغة انفعالية شديدة بعيداً عن ابداء الحجج والبراهين العقلية في كتاباتهم.

وإذا كانت هذه الدراسة قد افلحت في تحديد بعض الملامح الاساسية لمضامين الكتابات على جدران مدينة بغداد فانها تبقى بانتظار أن تردف بدراسات أعمق واشمل تلقي الضوء على جوانب اوسع في هذه الظاهرة الاخذة بالاندراس - بسبب حملات طلاء الجدران - الامر الذي يهدد بضياع فرصة نادرة للتعرف على ظاهرة تؤرخ لمرحلة من اهم المراحل في تاريخ المجتمع العراقي.

# اعـــادة اعمار الشخصية العراقيـــة

علي تركي نافل/جامعة القادسية

الكل يصف الشارع العراقي الآن سواء على الصعيد الرسمي أو الشعبي، بانه يفتقد إلى الأمن والاستقرار، وقد يكون هذا جزءاً مهماً ورئيساً من مشهد هذا الشارع، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون هناك عامل مهم ايضاً ويمثل نسبة كبيرة من مساحة هذا المشهد، غفلته أو تغافلت عنه أو اهملته ولم تعطه الاهمية المناسبة اغلب الجهات الرسمية أو الشعبية، هو (الازمة الاخلاقية والقيمية للشخصية العراقية)، المتمثلة بالكثير من المواقف والحالات، فعلى سبيل المثال نطالع اليوم الحرية المنفلته التي يمارسها البعض باسلوب يتقاطع مع مصالح الآخرين وخصوصياتهم وممتلكاتهم، ونشهد ارتفاع نسبة الجريمة بكل أنواعها، ونتلمس تفصيلياً سيادة مبدأ (المال أولاً) على حساب كل الاعتبارات الانسانية والروحية والاخلاقية، فأصبحت الحياة عبارة عن بورصة تنافسية وليس حياة إنسانية يحتفظ فيها الإنسان بكرامته ومكانته كقيمة عليا. كما صرنا نواجه نزعة شيوع العنف مقابل غياب منطق العقل في اغلب تعاملات الناس اليومية، فبات العنف هو الوسيلة المفضلة لدى الكثيرين للحصول على حقوقهم أو للحصول على ما هو ليس من حقهم أيضاً. لقد اهتمت سلطة الاحتلال والدول المانحة ومجلس الحكم والوزراء بمسألة اعمار العراق (شكلياً في الأقل)، ولا أحد يستطيع أن ينكر الاهمية القصوى لهذا الامر، إلا أن ذلك لا يمثل سوى نصف الصورة أو نصف الحل، فلا بأس أن يكون اهتمامنا بالجانب الاقتصادي والعمراني كبيراً، ولكن علينا أن نتذكر، إن الحضارة لا تبنى بالاسمنت والحديد فحسب، بل يحتاج بناؤها إلى المعرفة والاخلاق ايضاً. ماذا ينفعنا لو بنينا ناطحات سحاب وطورنا محطات البترول والكهرباء وغيرها، والانسان العراقي مخرب من داخله؟ وماذا تنفعنا والنسيج الاجتماعي ممزق؟ ماذا تنفعنا والاخلاق في ازمة متفاعلة؟ وماذا تنفعنا والعنف هو اللغة المفضلة لحل المشكلات في معظم قطاعات الحياة الاجتماعية؟ ماذا تنفعنا والنزعة الفردية مستشرية كأن الوعي الجمعي سقط صريعاً بفايروس الانانية؟!

هناك رأي يقول أن الجانب الاقتصادي يأتي أولاً من حيث الاهمية في عملية إعادة الاعمار، ثم يأتي بعد ذلك الجانب الاجتماعي والاخلاقي، نقول إن هذا الرأي صحيح لو كانت الأزمة الاجتماعية والاخلاقية أقل شدة من الازمة الاقتصادية، إلا أن الوقائع تشير إلى عكس ذلك، إذ تتقارب الازمتان في العراق في مدى اتساعهما وتعقيدها وشموليتها، حتى يصعب الحكم عمن يستحق الاولوية والصدارة، فالعلاقة مركبة وجدلية بين البناء الاقتصادي والبناء الاخلاقي والقيمي لأي مجتمع. فالمجتمعات المتماسكة بأواصر الصدق والتسامح والحب تبني وتحافظ على منجزاتها الاقتصادية والعمرانية. والمجتمعات التي تمزقها خناجر النفاق والتعصب والكراهية، تقوض هذه المنجزات ولا تحافظ عليها، مما يعني عودتها من جديد إلى نقطة الشروع. والدوران في حلقة مفرغة. فهل هذا هو الذي نريده؟ حتما لا، ولذلك ندعو إلى تأسيس "هيأة نفسية تربوية" تهتم باعمار الشخصية العراقية في جميع النواحي الاخلاقية والقيمية، ليس على طريقة الهيئات الاجتماعية النمطية الموجودة حالياً أو سابقا، بل هيأة حقيقية ترتبط باعلى مؤسسات اتخاذ القرار بالبلاد، وتمتلك صلاحيات وامكانيات مادية كبيرة، ويعمل فيها باحثون واختصاصيون في علم الاجتماع والتربية وعلم النفس والفلسفة والقانون والاعلام، تأخذ هذه الهيأة على عاتقها عملية اجراء البحوث في المشكلات المختلفة التي تنطوي على ابعاد نفسية أو اجتماعية أو اخلاقية أو قيمية، ومن ثم وضع معالجات لها بناءاً على نتائج وتوصيات تلك البحوث، وتغيير وتعديل اللوائح والقوانين بما يتناسب وتلك المعالجات. بمعنى آخر اللجوء إلى منهج البحث العلمي بوصفه وسيلة مضمونة لحل المشكلات وليس على طريقة اجتهاد هذا المسؤول أو ذاك. ولعل هذا هو الدرس الذي تعلمته الامم المتقدمة من تجاربها وسارت عليه فوصلت إلى نور الشمس بعد أن نامت قروناً طويلة في عالم الظلمات.

إن ما يثقل كاهل الانسان العراقي، اليوم، ليس العامل الامني أو السياسي أو الاقتصادي فحسب، بل هي أيضاً التراكمات النفسية التي ضغطت على الذات العراقية وجعلت هذا الانسان يغمض عينيه عن مشكلاته الاصلية النابعة من توترات اعماقه القلقة، وينشغل عنها بامور خارج ذاته. فهل قوات الائتلاف هي وحدها التي اشاعت الانانية أو الروح العدوانية أو الفساد الاداري أو الرشوة؟ ربما إنها اسهمت في ذلك جزئياً، ولكن الاساس إن هذه الظواهر موجودة فينا اصلاً، بل وتضرب جذورها في المساحات العميقة من شخصية الفرد العراقي بعد عقود من الحروب والاستبداد والظلم الاجتماعي.

نقول هذا ولسنا متشائمين أو مغالين، بل واقعيين نرتجي حلولاً جذرية بعيداً عن انصاف الحلول وانصاف التحليلات، سنجد لقولنا آذاناً صاغية، أم سنواجه بالاهمال أو الابعاد أو تكميم الافواه؟ وحسبنا الاشارة والتنبيه والتذكير، وحسبنا تعبيرها عن وفائنا لمجتمعنا وبلدنا، وحسبنا ونحن وسط كل هذه الفوضى أن نحلم بمجتمع كريم، يحذو حذو المجتمعات الراقية على ارض المعمورة، ليكون عونا لابنائه ويكونون عونا له، ويكون راعياً لابنائه ويكونون راعين له. وكل المآثر الكبرى لا بد أن تبدأ بحلم مهما كان يبدو شاحباً أو غير واقعي.

# الاضطرابات النفسيـــة الناجمة عـــن استخدام الحاســـوب والانترنيت

فارس كمال نظمي/جامعة بغداد

شهد العصر الحديث تحالفاً وثيقاً بين العلم والتكنولوجيا، إذ أصبح كلاهما يؤدي إلى تطوير الآخر في حلقة محكمة من التأثيرات المتبادلة غير النهائية إلا أن هذا التسارع التكنولوجي في الوقت الحاضر وفي المستقبل سيخلق اجيالاً تصاب بما يسمى في الدراسات الاجتماعية ((صدمة المستقبل)) Future Shoxk، وهي المحنة البدنية والنفسية التي تنجم عن تحميل كل نظم التكيف البدني وعمليات صنع القرار في الكائن البشري فوق طاقتها. فالمجتمع البشري الحديث هو حصيلة ثنائية من الهيمنة والاغتراب التي يعرض المجتمع التكنولوجي النفس الانسانية لها، إذ تشهد البشرية اليوم إضمحلال العلاقات الاجتماعية واختزالاً في زمنها وضغطاً متزايداً على حياة كل انسان. فالعلم يسير بسرعة هائلة مصطحباً معه تكنولوجيا متطورة بوتائر خيالية ما تلبث أن تضع كل يوم ما هو جديد وأكثر عملية لحياة مستقبلية تبتعد كل البعد عن الاسترخاء ولو للحظات قليلة.

وفي ميدان تكنولوجيا المعلومات (اي ميدان استخدام الحاسوب وشبكات المعلومات) أصبح معروفاً أن الكثير من الناس يجدون أن تعلم استخدام الحاسوب يعد امراً مخيفاً وصادماً، مما يجعلهم يشعرون بالافتقار إلى القدرة المناسبة لتطوير مهاراتهم في هذا الميدان، فيتجنبون بقوة استخدام الحاسوب. فقد وجد في الولايات المتحدة الامريكية مثلاً أن ثلث طلبة الجامعات يعانون الخوف المرضي (الرهاب) من التكنولوجيا Technophbia. كما وجد أن (٦٠٪) من طلبة الجامعات في اليابان يعانون الحالة نفسها بسبب أن القيم الثقافية اليابانية لم تسمح باستخدام الحاسوب في المدارس الابتدائية، بل اقتصر استخدامه على المدارس الثانوية فقط، مما دعا وزارة التربية اليابانية إلى تغيير سياساتها فيما بعد. وتحت ضغط هذه الحاجات، باشرت مراكز البحوث في الدول المتطورة تكنولوجيا#@ منذ سبعينيات القرن الماضي بتأسيس أطار نفسي أكاديمي لدراسة تلك الاستجابات النفسية السوية الناجمة عن تطور تكنولوجيا المعلومات، مستحدثة مفاهيم جديدة دخلت القاموس النفسي للمرة الأولى، ضمن تخصص معرفي جديد صار يعرف بـ ((علم نفس استخدام الحاسوب)) Computer Pschologe. ويقف في مقدمة هذه المفاهيم المستحدثة مفهوم ((رهاب الحاسوب)) Computerphobia الذي يعني ( (ممانعة يبديها الفرد لاستخدام الحاسوب، تكون مصحوبة بالخوف أو القلق. وتتألف هذه الممانعة من ثلاثة عناصر، هي: عدم استخدام الحاسوب، وعدم التحدث عنه، وعدم التفكير به)). كما اشتقت مصطلحات أخرى مترادفة في مضامينها، منها: ((قلق الحاسوب))، و((ضغط الحاسوب))، ((النفور من الحاسوب))، و((الضغط التكنولوجي)). ويتم التعبير عن هذه الاضطرابات النفسية بطرائق مختلفة، منها: حدة الطبع، أو الصداع، أو الكوابيس، أو مقاومة تعلم تقنيات الحاسوب، أو رفض شديد للتكنولوجيا.

وقد تنوعت الدراسات العلمية التي حاولت الإحاطة بهذه الاضطرابات النفسية، في افتراضاتها ونتائجها وطرائق بحثها. فقد أصبح معلوماً اليوم أن ازدياد معدل ضربات القلب وارتفاع ضغط الدم وازدياد التقلصات العضلية، كلها أعراض تصاحب استخدام الحاسوب بسبب أن الغدة الكظرية تزيد \من إفرازاتها أثناء التعامل مع الحاسوب. كما تم التوصل إلى أن نسبة مئوية عالية من الناس يشعرون أن الحاسوب سوف يطور نوعية الحياة من جهة، إلا أنهم يشعرون أيضاً من جهة أخرى أن تكنولوجيا الحاسوب أدت إلى انخفاض في عدد الفرص المتاحة لهم للعمل، فضلاً عن إنها قللت من إنسانية المجتمعات. وفي مجال الطفولة، تبين أن ازدياد \استخدام شبكة الانترنيت لدى الاطفال يرافقه تحسن في سلوكياتهم نحو الآخرين، لكن ازدياد استخدام الالعاب الالكترونية يرافقه ازدياد في حالات سوء السلوك لديهم، مع ظهور صعوبات شديدة في الانتباه عندهم د\اخل غرف الصف المدرسي. وقد ترافقت نتائج مثل هذه الدراسات مع ظهور تيار فكري بين بعض الباحثين الغربيين يحذر من مخاطر المعلوماتية. فعلى الرغم مما اتاحته تكنولوجيا الاتصالات من إمكانية الانتشار الكمي والنوعي للمعلومات على مساحة الكرة الارضية، إلا أن ((المعلومات لا تساوي المعرفة)) في نظر هؤلاء الباحثين، ذلك أن عالم اليوم ركز على معلوماتية غير واعية بتأريخها، وحد من المعرفة إلى الحد الذي أصبحت فيه المعرفة بحد ذاتها مهددة. فالمعلومات في عصر المعلومات اصبحت منفصلة عن تاريخها، وسبباً في إحداث فجوة في المعرفة يصاحبها غياب النقد البناء.

وإذا كان "علم نفس استخدام الحاسوب" قد باشر دراساته منذ سبعينيات القرن الماضي كما أشرنا إلى ذلك قبل قليل، فإن المجتمعات النامية لا تزال تفتقر بشكل جزئي أو كلي لوجود هذا الحقل المعرفي لأسباب تتعلق بتخلفها العلمي والتكنولوجي. ونظراً للتطور النسبي الملحوظ الذي شهده المجتمع العراقي في السنوات الاخيرة في ميدان استخدام الحواسيب وشبكات المعلومات، فقد برزت حاجة ملحة لتنمية ثقافة نفسية تلازم عملية التطور هذه وتصونها قدر الإمكان من التأثيرات السلبية التي يمكن أن تنجم عنها. وأن أول مستلزمات البدء ببناء هذه الثقافة هو أن يجد "علم النفس استخدام الحاسوب" مكانه الطبيعي ضمن المناهج الدراسية المقررة سواء في المرحلة الاعدادية أو الجامعية، لتبقى الشبيبة العراقية على اتصال واع بالتأثيرات الايجابية والسلبية لثورة المعلومات وتقنيات الحاسوب، بدلاً من التعامل الأعمى غير المأمون في عواقبه النفسية مع هذا النوع من التكنولوجيا، فضلاً عن الدور الحيوي الذي يمكن أن تؤديه وسائل الاعلام في إشاعة المعطيات المعرفية الخاصة بهذا الميدان.

ان جرس التحذير الذي يقرعه علم النفس للتنبيه إلى مخاطر الاضطرابات النفسية التي يمكن أن تنجم عن استخدام وسائل التكنولوجيا المعلومات، لا يعني الدعوة إلى الوقوف بوجه هذه الثورة التكنولوجيا ذات المنافع المتعاظمة. فكل الاختراعات التكنولوجية في التأريخ كان لها إيجابياتها وسلبياتها على المستويات البيئية والصحية والسوسيولوجية والسيكولوجية. ومن هنا يبرز السؤال الفلسفي الآتي: ((هل إن الاختلال النفسي الاجتماعي الذي يشهده عالم اليوم هو نتاج حتمي للتطور التكنولوجي؟ أم إنه نتاج للأسلوب الرأسمالي القائم على الاستغلال، والذي يوظف تلك التكنولوجيا لتكديس أرباحه، ولو على حساب استنزاف الطاقة النفسية للإنسان؟)). إن التجربة الإنسانية اليومية المشتركة، فضلاً عن معطيات فلسفة العلم، يشير كلاهما إلى عدم إمكانية الجزم بأن التكنولوجيا (في ماهيتها) لا بد أن تمارس تأثيراً انفعالياً سلبياً في الإنسان، بل إن الأمر يتعلق أكثر بالأسلوب الذي يتم به توظيف هذه المنتجات التكنولوجية في حياة الناس. ولهذا يكمن الحل في تنظيم العلاقة التقنية والنفسية بين الفرد والحاسوب بأسلوب يضمن الاستثمار الأمثل لطاقة الانسان والآلة معاً، بعيداً عن حلقات الاستغلال والقسر والاغتراب التي هي سمات النظام الاجتماعي المعاصر أكثر من كونها سمات متأصلة في ماهية الاختراعات التكنولوجية نفسها.